مجلة روافد
للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية
المجلد 06 (عدد خاص) 2022 ص ص 550-567

الخطاب التعليمي والإصلاحي لدى الشيخ العربي التبسي
-دراسة تحليلية-

Educational and Reform discourse by Sheikh larbi Tebessi
- analytical study-

سمرة عمر*

جامعة العربي التبسي (الجزائر).

البريد الالكتروني المهني: samra.amor@univ-tebessa.dz

تاريخ الإيداع	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2022/01/18	2022/03/26	2022/04/16

الملخص: يهدف هذا البحث إلى التعريف بالخطاب التعليمي والإصلاحي للشيخ (العربي التبسي)، ويبين فاعليته في مجال الاصطلاح التربوي والتعليمي والأخلاقي، وموقعة الهام ضمن الخطابات الإصلاحية الوطنية الأخرى.

وقد تم استخدام المنهج الوصفي التحليلي في البحث، الذي يفيد في معرفة الخطاب التعليمي والإصلاحي لدى (العربي التبسي) من حيث بنيته وموضوعه وأهدافه البعيدة والقريبة، كما يفيد في ربط خطابه ببيئته وأحداث زمنه وظروف مجتمعه، وهو المجتمع الجزائري الذي عاش تحت وطأة الاستعمار، ففي ظروف استثنائية تميز (العربي التبسي) بخطابه التعليمي والإصلاحي، وأوجد لاسمه مكانا في التاريخ يذكر وعيه الثاقب تجاه قضايا أمته ووطنه.

وقد تم التوصل إلى النتائج الآتية: -يتميز الخطاب التعليمي والإصلاحي للعربي التبسي بالبعد الديني والروح الوطنية، -كتاباته لها قيمة بارزة في نشر الوعي ودور كبير في مجابهة سياسة الاستعمار الذي عايشه الرجل. -يشجع خطابه على تواصل الجهود والأهداف التعليمية والإصلاحية، وجعلها تستمر في أداء رسالتها، ومواصلة عطائها لأبناء الوطن.

وفي ضوء هذه النتائج تقترح الدراسة الالتفات إلى خطابات (العربي التبسي) ودراستها دراسة جادة تستوفي جوانبها المختلفة، وتكتشف مواضيعها المتعددة، وتستفيد من مضامينها، التي تعد مرجعا يمكن الاتكاء عليه في المجالات التربوية والتعليمية والإصلاحية وغيرها.

الكلمات المفتاحية: *العلم ؛ الإصلاح ؛ العربي التبسي ؛ تحليل الخطاب.*

* **المؤلف المرسل**

Abstract: The purpose of this research is to publicize the educational and reform discourse of the Sheikh (larbi Tebessi) and to demonstrate his effectiveness in the field of educational, educational and moral reform, as well as his important signature among other national reform letters.

The analytical descriptive curriculum has been used in research, which is useful for learning about educational and reform discourse. It also serves to link his speech to his environment, time and the circumstances of his society, the Algerian society, which lived under colonialism. The larbi Tebessi, with his educational and reformist speech, has created a place in history for his name to state his deep awareness of the causes of his nation and his homeland.

The following conclusions were reached: - The educational and reformist discourse of larbi Tebessi is distinguished by the religious dimension and national spirit. - His speech encourages the continuation of educational and reform efforts and objectives, and encourages them to continue to carry out their mission and to continue to give them to the people of the country.

In the light of these findings, the study proposes to look into the letters of the larbi Tebessi and to study them in a serious manner that meets their various aspects, discovers their various themes and takes advantage of their contents, which are a reliable reference in the educational, educational, correctional and other fields

Keywords: *Science; reform; larbi Tebessi; Analysis of the discourse.*

مقدمة:

يعد الحديث عن الخطاب التعليمي والإصلاحي لدى الشيخ العلامة (العربي التبسي) حديث عن الحصانة الحضارية والثقافية للأمة العربية الإسلامية الجزائرية، وحديث عن مساهمة متميزة وفعالة تصبو إلى إعادة تشكيل الواقع الثقافي والوعي الحضاري لهذه الأمة؛ ذلك أن آنية التفكير في حالها ومآلها بحاجة ماسة إلى منهجية متجددة، تتشرب من مناهل الخطاب الإصلاحي لعلمائها ومصلحيها وإعادة المعايرة بقيم الدين الإسلامي الحنيف والإفادة من التجارب الإيجابية من الأمم السابقة، وإعادة النظر في كل ما هو وافد، مؤثر بشكل سلبي على هوية وأصالة هذه الأمة.

فقد بات من المسلم به أن التغيير لن ينال الأمة إلا إذا تعالت خطابات التعليم والإصلاح، وتمكن مفكروها، كل من موقعه، سواء أكان ذلك من موقع المسؤوليات القيادية والتوجيهية للأمة، أو من مواقع التفكير والبحث، أو من مواقع طلب العلم على اختلافها، فالتمكن من تطبيــق منهــج كشف يعري الأسباب التي أورثت الأمة الجزائرية

هذا الواقع الذي غابت فيه مراجعة مناهجها، وانعدم فيه فحص أفكارها بات واجبا حسب الشيخ (العربي التبسي) لأجل تغيير هذا الواقع البئيس، الذي يميت الفاعلية، ويعطل التطلع صوب المستقبل. وهذا الوعي الحضاري والثقافي الذي يتميز به خطاب الشيخ (العربي التبسي) يقودنا إلى أسئلة مفادها: ما أهميته خطابه التعليمي والإصلاحي اليوم؟ وما موقعه ضمن الخطابات الإصلاحية والتعليمية الأخرى؟

1. العربي التبسي: مولده وتعليمه ونشاطه الإصلاحي:

1.1 مولده:

يُعد الشيخ العربي التبسي واحدا من أهم العلماء المسلمين الجزائريين في العصر الحديث، اسمه الكامل هو العربي بن بلقاسم بن مبارك بن فرحات، وقد وُلد في قرية (السطح) التابعة لمدينة العقلة، ونشأ في مدينة "تبسة" القريبة من قسنطينة سنة 1891م على الأرجح، وقد اختلف في تاريخ ميلاده، فمنهم من يذكر أنه ولد في سنة 1895م (دبوز، 1981، صفحة 187)، ومنهم من يذكر أن ميلاده كان في سنة 1891م، حسب شهادة ميلاده المستخرجة من بلدية مسقط رأسه (الرفاعي، 2011، صفحة 09).

2.1 حياته العلمية:

نشأ العربي التبسي في بيت دين وعلم، حيث أخذ مبادئ العلم والدين عن والديه، الذين كانا سببا في نضوج فكره، فنشأ نشأة العلماء محبا للثقافة والعلم، ومحبا للدين الإسلامي ومدافعا عنه (دبوز، 1981، صفحة 37). فقد تعهده والده في بداية حياته في شؤون التربية والتعليم، فنشأ على الدرس والتعلم وحفظ القرآن الكريم، ولما صار شابا انتقل إلى مدينة (نفطة) طلبا للعلم، ومنها إلى العاصمة تونس لاستكمال تعليمه في جامع الزيتونة سنة 1914م، ثم رحل إلى مصر عام 1920م، ومكث هناك بالأزهر الشريف، فتعلم أصول الدين وعلومه، وبعدها عاد إلى الجزائر عام 1927م، وعمل على نشر العلم

ومحاربة البدع والخرافات ومكافحة الاستعمار الفرنسي (الرفاعي، 1986م، صفحة 218).

3.1 نشاطه الإصلاحي بعد عودته إلى الجزائر:

لقد ولج الشيخ (العربي التبسي) عالم الإصلاح والسياسة منذ كان طالبا في جامع الزيتونة بتونس مطلع عشرينيات القرن العشرين، متأثرا في توجهه السياسي والإصلاحي بالمناضل (عبد العزيز الثعالبي)، الذي أسس "الحزب الدستوري الحر" في تونس عام 1920م، حيث كان من أنصاره بعمله ونشاطه فيه (بديدة، 2013، صفحة 06).

فبعد أن عاد الشيخ (العربي التبسي) من مصر إلى الجزائر، استقر في مدينة (تبسة)، ومنها راح ينشر أفكاره الإصلاحية والتحررية للجماهير، مما جعله محط أنظار السلطات الفرنسية الاستعمارية آنذاك، وكانت النتيجة أن واجه مضايقات على تحركاته ونشاطاته، فتوجه إلى مدينة (سيق) بالغرب الجزائري، حيث مكث فيها ما بين (1930-1931)، وفيها واصل جهوده التوعوية والإصلاحية (بديدة، 2013، صفحة 09).

وقد عمل بمدينة (سيق) المعروفة بمعسكر اليوم، مدرسا ومرشدا، وأسس مدرسة التهذيب للبنين والبنات. تأثر الشيخ العربي التبسي بأئمة الثقافة الإسلامية، كالإمام "علي" كرم الله وجهه، والحارث بن أسد المحاسبي أحد أئمة الحديث، وأبرز أئمة التصوف، وكذلك بالإمام محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية وابن تيمية (دبوز، 1981، صفحة 218).

ونظرا لأفكاره التحررية، ونشاطاته ضد الاستعمار الفرنسي، قامت السلطات الفرنسية باعتقاله، والزج به في السجن في عهد حكومة الجنرال (جيرو)، حيث قضى في سجن (لمبير) بمدينة باتنة ستة أشهر، ثم أطلق صراحه نهاية عام 1943م (بديدة، 2013، صفحة 20)، وعاد بعدها إلى مدينة (تبسة) وواصل عمله التعليمي والاصلاحي، وبقي فيها حتى سنى 1945م، ثم انتقل إلى مدينة قسنطينة، ولم يمكث حتى اعتقل مرة أخرى

من طرف الاحتلال الفرنسي، وبقي في السجن حتى عام 1946م (بديدة، 2013، صفحة 12). ولم تؤثر سنوات السجن سلبا على عزيمة (العربي التبسي)، وجهوده التعليمية والاصلاحية، فواصل الأخذ بيد شباب الجزائر من طلبة العلم وغيرهم، إلى طريق الثورة ضد المستعمر، واسترجاع السيادة الوطنية (الرفاعي، 2011، صفحة 11).

وقد كان الشيخ العربي التبسي سباقا في تأييد الشيخ (عبد الحميد بن باديس) في تأسيسه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والتي كان غرضها تحرير الجزائر عن طريق إنشاء جيش من الشباب، يحمل فكر الجمعية، وعقيدة الإسلام، فقد كان الشيخ (العربي التبسي) يؤمن بأن هذه الجمعية ستكون نقطة جذب لمئات الآلاف من أنصار العلم والتحرر (دبوز، 1981، صفحة 218).

إذ عاش الشيخ العربي التبسي بمبدأ محاربة الاستعمار ومقاومته، وسهر على لحمة ووحدة الشعب الجزائري، باعتبار الوحدة هي الطريق المؤدية إلى التحرر من الاستعمار الفرنسي منذ 1930م، إذ ساهم في تأسيس الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها في أوت 1951م، رفقة قيادات معروفة من أحزاب الشعب الجزائري والاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، والحزب الشيوعي الجزائري (الزبيري، 2014، صفحة 257/256).

هذا وقد كان الشيخ (العربي التبسي) (رحمه الله) صاحب شخصية قوية يتميز بالشجاعة، يقول كلمة الحق دون تردد ويبدي رأيه بلا خوف، حيث لم تردعه أساليب الاستعمار الفرنسي ووسائله، فعلى الرغم من تقدم سنه وظروفه الصحية، واصل الدفاع عن قضايا أمته، وساند الجزائريون بنضاله المستميت حول استرجاع السيادة الوطنية (بديدة، 2013، صفحة 20).

2. الخطاب التعليمي والإصلاحي لدى الشيخ العربي التبسي:

1.2 الخطاب التعليمي: لما حاول الاستعمار الفرنسي تدمير الهوية الجزائرية وطمسها عن طريق التعليم الموازي، بمحو آثار الثقافة الجزائرية، وتسخير المدارس الفرنسية لتعليم الجزائريين لغة المستعمر، كثف (العربي التبسي) جهوده للفت الشعب الجزائري إلى تعلم اللغة العربية وحفظ القرآن في المدارس القرآنية والزوايا، وركز خطابه حول أهمية العلم والتعليم في محاربة سياسة فرنسا التعليمية، فالعلم هو السلاح الفعال لكسر شوكة المستعمر، والسبيل إلى نيل الحرية.

2.2 أهمية العلم في خطابه: يدرك الشيخ (العربي التبسي) أهمية العلم والتعليم بالنسبة للأمة الجزائرية، التي حاربها الاستعمار في دينها ولغتها وشخصيتها الوطنية، لذا فقد وجه جل اهتمامه لنشره، ذلك لأن العلم هو السبيل إلى التحرر والرقي الحضاري، وقد اعتنى به في خطابه بتوضيـــــح فائدته معتمدًا في ذلك على مرجعيته الثقافية الدينية واللغوية.

يقول مكافحا بخطابه حملات الغزو والاستئصال الثقافي والديني واللغوي، التي يتعرض إليها الشعب الجزائري:

"... وهذه شر حرب أعلنها الاستعمار على ديننا ولغتنا وجماعتنا، وما يعلنه الاستعمار على معهدنا مكانا ولغة يقال على بقية المقومات، فالمعاهد الأخرى لها أوقاف قديمة ينفق منها على تسييرها، أما أوقافنا التي أوقفها الواقفون للدين والعلم فسلبها منها الاستعمار، وسماها أملاك الدولة، وجزئها إلى ما يباع إلى النازحين إلى الجزائر من الأمم الأوربية وإلا ما أبقى ملكا للدولة، وإلا ما جعل ملكا للحوز وعلى أغراض الواقفين وعلى المشاريع الخيرية والعلمية دينية أو دنيوية العفاء. لأن الاستعمار حيوان مسلح لا يعرف إلا ما كانت لغته القوة والسلاح..." (التبسي، 1959، الصفحات 2-7).

فقد ركزت الإدارة الفرنسية على تطويق نشاط رجال الإصلاح، وأصدرت مراسيم تقضي بمنع التعليم في المساجد والمدارس الحرة، ومنها مرسوم (ميشال) الكاتب العام

للولاية آنذاك الذي فحواه: "وعليه فإني أتعهد إليكم أن تراقبوا بكامل الاهتمام ما يروج في الاجتماعات والمسارات التي تعقد باسم جمعية العلماء والتي يترأسها السيد ابن باديس ولسانها الرسمي الشيخ الطيب العقبي كما يجب أن تشمل مراقبتهم المدارس القرآنية" (مريوش، 2007، صفحة 151). فهي حرب من إدارة الاحتلال ضد العلم والتعليم في الجزائر وهذا لطمس الهوية وتشويه الشخصية الجزائرية، فقد أدرك المستعمر أن المقومات الأساسية للشخصية الجزائرية هي اللغة العربية، والدين الإسلامي فعمل على محاربتهما بشتى الطرق.

ونجده يقول أيضا: "وإذا بلغت هذه الدعوة الصالحة وانتشرت، وقبلها المسلمون وعدوها نعمة من الله عليهم، كان تأليف رسالة جامعة لأهم النقط التي يدخل منها ليل البدع على نور السنن من أوجب الواجبات على حملة السنن، وعلى أعضاء جمعية العلماء، إذ دعاة الإصلاح اليوم في حاجة ماسة إلى رسالة في هذا الموضوع جامعة لأدلة هذه المسائل، ناقلة للآيات أو الأحاديث في كل نقطة من النقط التي تناولتها الرسالة المقترحة المرغوب في تأليفها، لتكون حجة للمستيقنين، وهداية للمسترشدين، وسيفا مسلطا على أعداء السنن المعروفين في الجزائر من المتعيشين لهذه البدع، والعوائد الضالة..." (الميلي، 1982، صفحة 01). يقف هذا الخطاب في وجه أعداء السنن الذين يعرقلون طريق الإصلاح ويقفون أمام مسار التعليم الصحيح، في مجال الدين وأسس العقيدة الإسلامية، فهؤلاء هم فئة ضالة حسب (العربي التبسي) تتاجر بالدين وتدنسه. وهنا نلمس الحماسة والغيرة على الدين الإسلامي من قبل (العربي التبسي)، والتي تحسب له كرجل علم ودين وأخلاق. لذا فهؤلاء هم أجراء سوء يقول فيهم: "... أما أجراء السوء الذين يدعون أنهم رجال دين محمد، فهم أعوانها على إفساد هذا الدين، يأكلون تمرها، ويطيعون أمرها، ولا عليهم في الإسلام والمسجد والإمامة والفتوى، وهمهم من هذه أن يأخذوا عليها أجرا من الاستعمار، فهم معها يغضبون لغضبها، ويرضون بتصرفاتها ما أجزلت لهم

العطايا، وناولتهم الأجور، فهم على خلاف رجال جميع الأديان من أبناء الدنيا، فالله يمهلكم أيها الأعوان للغاصبين على دينهم ولا يهملكم" (التبسي، 1959، صفحة 17).

3.2اهتمامه باللغة العربية:

اهتم الشيخ العربي التبسي باللغة العربية اهتماما بالغا، فهي حسبه عمود الإصلاح والنهضة الوطنية، يقول في شأنها:

- "ولكن لغتنا إليها يعود بقاء الدين ويظل مهيمنا على القلوب ماسكا بالأرواح" (التبسي، 1959، صفحة 60).

- "دين الأمة الذي لا سبيل لنا إليه غير اللسان العربي" (التبسي، 1959، صفحة 160).

- " إن شمال إفريقيا أمة عربية اللسان العامي وعربية اللغة العلمية، وعربية التعاليم الدينية، وعربية القضاء، لا فرق بين مراكشها وجزائرها وتونسها وطرابلسها" (التبسي، 1959، صفحة 160).

- "ذلك لأنه لا دين ولا قومية، ولا أمة ولا أي مقوم أو مميز للأمة إذا هي مضت فيما عليه من الجهل بلغتها والعزلة عن تاريخها" (التبسي، 1959، صفحة 44).

- "واللغة الأجنبية بعنوان أجنبيتها معزولة عن حياة الشعب، وكل شيء أبعد عن حياة الشعب تعرض للموت والهجران" (التبسي، 1959، صفحة 160).

فاللغة العربية هي أساس الإصلاح، وهي ركن أصيل في الدين الإسلامي، وأساس متين من أسسه، واللغة العربية هي مجد وعزة الأمة، والرابط بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها، فيجب المحافظة عليها؛ بتعليمها للنشأ والأجيال، فهوية الأمة تكمن في لغتها التي لا يمكن التنصل منها بأية حال. فقد حوربت اللغة العربية من قبل الاستعمار الفرنسي بسياسة تهجير ونفي علمائها ومدرسيها إلى بلدان أخرى (سعد الله، 2007، صفحة 472)، كما انتهجت سياسة مصادرة الأملاك والأوقاف وهدم المساجد والزوايا وفرض العقوبات والقوانين على كل من يسعى إلى تدريسها (سعيدوني، 2009، صفحة 43)، لذا

فقد ركز في خطابه على فائدتها في الإصلاح التربوي، وأهميتها في النهوض بالتعليم والمحافظة على الهوية الوطنية.

4.2 منهج التعليم الصحيح: المنهج الصحيح في التعليم حسب (العربي التبسي) هو ذلك المنهج الموضوعي والمنطقي الذي ينطلق من معطيات محددة، ويصل إلى نتائج صحيحة وسليمة من خلال هذه المعطيات أو المسببات.

يقول: "ومعلوم لنا في أول ما ركز الله في عقولنا أن جلت قدرته ربط حلقات هذا العلم ربطا محكما، وجعل لكل شيء علة تتقدمه وترتبط به ارتباطا وثيقا، وجعل المسببات تنشأ عن أسبابها عند ملابسة المكلف للأسباب، وتنعدم عند انعدام أسبابها.

ذلك خلق الله عند حضور الأسباب الموضوعية للسببية، وسنته التي عرفها عباده، وعلمهم سببيتها، وكيفية التسبب، وأراهم أنهم على قدر إحسانهم للتسبب، وعلمهم بالأسباب، وبراعتهم في التذرع والتماس الذرائع المنهية إلى المسببات، يكون فوزهم بالمقاصد، سواء في ذلك التسبب الديني في الشرائع أو التسبب الدنيوي في الحياة ومرافقتها

وإذا أفهمنا ربنا هذه الأسباب التي تعد سنته في خلقه ورحمته التي قام عليها عمران هذا العالم الأرضي، وبات عملنا بهذا التنظيم الإلهي علما ضروريا عاما في كل عصر ومصر وأمة لا يشذ عنها أحد إلا في أحوال استثنائية، ولا يختلف فيها سبب عن سبب عرفت سببيته، ولا يخرج عن مسبب من المسببات، فقد وجب على القائمين بالإصلاح في هذه الأمة الجزائرية، أن يدخلوا في هذه السنة عملا لا اعتقادا فقط. وأن يتخذوا من الذرائع والأسباب المباشرة ما يفضي إلى المقاصد، التي نصبوا أنفسهم لتحصيلها، وقصدوا لخدمة الأمة من جهتها وأن يلتمسوا من الأسباب ما تحققت سببيته، سواء في ذلك ما عرف قبل، وما وجد في هذه الآونة (التبسي، 1959، صفحة 17).

فمن خلال تحليل مضمون خطابه، نستطيع أن نفصل فكرته في النقاط الآتية:

-1 التركيز على العقل كأداة تحري لحقائق الأشياء، وربط موضوعاتها بطريقة السبب والمسبب، أو العلة التي أوجدت هذه الأشياء، فمن المعلوم أن العلم مرتبط أوله بآخره؛ أي معطياته بنتائجه، ولا توجد نتائج دون معطيات أو مقدمات.

-2 محاولة التأصيل للموضوعية في المنهج الرباني، باعتبارها وسيلة من وسائل منهج البحث في الوصول إلى المقاصد سواء أكانت دينية أو دنيوية، فالمنهج الصحيح هو الأخذ بالأسباب، للوصول إلى الغايات والمقاصد، والتسبب أو الأخذ بالأسباب هو إرث أوجده الله تعالى في البشرية وسنته التي خلق عليها الكون المبني على فكرة الموضوعية.

-3 فقد أولى (العربي التبسي) العناية بموضوع الاهتمام بالتفكير العلمي، وأوصى بالاستفادة منه، وتوظيفه لما يخدم الأمة الجزائرية وصالحها، فإذا كان الكون مبني ومنظم وفق معايير موضوعية ومنطقية، فينبغي على المثقفين والمصلحين أن يراعوا هذا النمط من التفكير في عملية إصلاحهم وإرشادهم وتعليمهم حتى يكون عملهم منظم، ونتائجه مفيدة للأمة. فـــ (العربي التبسي) يعطي صورة أوسع وأشمل لطبيعة التفكير العلمي والمنهج العلمي تبدأ من فكرة خلق الكون، وتصل إلى كونها عناصرا مهما يمكن الاستفادة منه في حقل التربية والتعليم والإصلاح.

2.2 الخطاب الإصلاحي: يعد الإصلاح في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي من أهم التجارب المقاومة للاستعمار آنذاك، الذي كان هدفه الأوحد القضاء على الشخصية العربية الإسلامية في الجزائر، فرغم الظروف الصعبة تعالت أصوات الإصلاح بعزيمة رجال الإصلاح في الجزائر، ومنهم الشيخ (العربي التبسي) الذي لم تهن عزيمته ولم تنكسر بفضل صبره وصموده، ويقينه أن هذا الشعب مصيره الحرية والخلاص من المستعمر.

يقول (العربي التبسي) مخاطبا الشعب الجزائري: "... وإثر هذه البسطة التي لا يراد منها إلا تفهيم الشعب في الواجب عليه نحو دينه ولغته، والأجيال العاقبة بعدنا أو الوارثة عنا ما نتركه لهم من معنويات واجتماعيات ودينيات وماديات... ندعو الشعب

الجزائري بجميع طبقاته التي تعمل لأن تبقى هذه الأمة أمة لها خواص الأمم، وميزاتها ومنشآتها إلى التشارك والتعاون في تسيير المعهد، والتدرج به إلى اللحاق بالمعاهد الإسلامية شرقا وغربا، وإلى تخليصه وإنقاذه من وضعيته الشاذة الموجودة عليها اليوم، وليس هذا بأمر صعب على أمة كالأمة الجزائرية إذا أخلصت نيات القادة الدينيين والدنيويين. وإذا قام الدعاة إلى العلم بما يجب عليهم من تصفية جهودهم من الأغراض الهدامة، وإنه لمن أكبر الكبائر مع الله ومع دينه ومع لغة كتابه أن يظل الشعب في ميراثه القديم القريب الضار المشوه بالخلافات، التي أعانت الزمان على الأمة الجزائرية، فأصبحت لا شرقية ولا غربية، لا عربية ولا عجمية.

فهب أيها الشعب لإعانة معهدك، ونشر ثقافتك، والسير مع أهل زمانك، ولن يضيع شعب حافظ على لغته وقوميته..." (التبسي، 1959، صفحة 02).

ففي هذا الخطاب يدعو الشيخ العربي التبسي بنبرة إصلاحية أفراد الشعب الجزائري إلى الوحدة والتمسك بالقيم الفاضلة، التي من شأنها النهوض بالأفراد والجماعات، وينوه بقضية العلم من خلال ذكره للمعهد، الذي كان من المشرفين عليه آنذاك إذ يدعو الشعب الجزائري بجميع طبقاته إلى الالتفاف حوله، والنهوض به ليصبح مثل المعاهد الإسلامية المعروفة بتميزها ووضعيتها الجيدة، وهو الأمر الذي من شأنه إصلاح حال الأمة الجزائرية بتظافر جهود قادتها وعلمائها، وإخراجها من وضعها غير المرضي وغير المشرف. وهنا نلمس روح الإخلاص والوفاء لدى الشيخ العربي التبسي لشعبه وأمته، ومسؤوليته تجاه الوطن وتفانيه في خدمته.

1.2.2 الإصلاح ومحاربة سياسة فرنسا التنصيرية:

لقد اتجه (الشيخ العربي التبسي) في مساره الإصلاحي نحو محاربة سياسة فرنسا التنصيرية في الجزائر، وقد ساعده في ذلك النوادي التي أقامتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عبر الوطن مثل: النادي الإسلامي في مدينة (ميلة) ونادي الاتحاد في

قسنطينة، ونادي النجاح في سيدي بلعباس، وكل هذا من أجل استقطاب الشباب وتوجيههم نحو تعاليم الإسلام وحب اللغة العربية، وإبعادهم عن المدارس الفرنسية الرسمية" (ابن نعمان، 1982، صفحة 176)، فقد عملت فرنسا إبان فترة استعمارها للوطن على طمس مقومات الهوية الجزائرية، وباشرت حربا شرسة على المساجد والمدارس القرآنية، وشيدت مدارس وجمعيات للتبشير بالمسيحية، وقد انتشرت هذه الجمعيات في الجزائر بكثرة، وتغلغلت في المجتمع الجزائري بحماية عسكرية من أجل الوصول إلى أهدافها التنصيرية وهي نشر ثقافة الكنيسة وتعاليم الإنجيل (وعلي، 2009، صفحة 222) وهو ما دفع الشيخ العربي التبسي وغيره من رجال الإصلاح في الوطن إلى التصدي إلى هذه الحملات الشرسة، ومحاربة فرنسا ومساعيها الخبيثة في جعل الجزائر فرنسية الهوية في الدين والمعتقد واللغة.

فقد رأى ثلة من الجزائريين أن طريق الإصلاح ومقاومة وجودهم يبدأ بالعودة إلى الأصول الإسلامية والحضارية للشعب الجزائري، فالتقطت فئة من علماء الجزائر ذلك الخيط ورأوا أن يُعيدوا سلوك طريق الدعوة ونشر التعليم والتربية الإسلامية التي حاربها الفرنسيون، فأقاموا المدارس والجمعيات، وأحيوا دور المساجد والجوامع، وعملوا على نشر المجلات والصحف، وتأثروا في ذلك بأئمة الإصلاح في المشرق مثل (جمال الدين الأفغاني) و(محمد عبده) و(رشيد رضا) و(بخيت المطيعي) وغيرهم (بن نبي، 1984، صفحة 09).

2.2.2 في معوقات الاصلاح الاجتماعي: ولا شك أن للعمل الإصلاحي أعداء ومتربصون، خاصة وأنه لا يخدم مصالح فرنسا الاستعمارية، وأهدافها في جعل الشعب الجزائري فرنسي اللغة والهوية والثقافة. إذ يرى الشيخ (العربي التبسي) أن الحائل دون الإصلاح هو فرنسا، يقول:

"... وتحارب الإسلام محاربة عنيفة قاسية استمرت مائة واثنين وعشرين عاما، تغتصبه من أهله وتمنعهم من أن يقوموا بدينهم في مساجدهم كما أمرت شريعتهم، ومهما يكن من شيء فإن فرنسا في الجزائر استعمارية وكفى، فلا هي لائكية، ولا مسيحية، ولا ديمقراطية، ولا تحترم في الواقع لا المسيح ولا وصاياه ولا المسيحية ولا تعاليمها..." (التبسي، 1959، صفحة 01). فقد عرفت فرنسا أن السبيل الوحيد للقضاء على الشخصية الجزائرية هو محاربة الدين الإسلامي، وقد استعملت أبشع الوسائل الاستعمارية لاستبعاده في أن يكون دين الدولة والشعب. فهي لم تكتف بالاحتلال العسكري للأرض والاستغلال اللإنساني للفرد الجزائري في خدمتها، بل سعت جاهدة الى احتلال العقل وتهديم المقومات الثقافية والبنى الحضارية للمجتمع الجزائري، وإعادة صياغتها وما يتماشى ويخدم أغراضها الاستعمارية. وعليه فإن ما كانت تطمح إليه فرنسا عبر منظورها الحضاري الاستعماري هو القضاء على الواقع الفكري والثقافي السائد في الجزائر، ومحو مقومات الشخصية الجزائرية، وإذابتها في المجتمع الأوروبي المستوطن، وسلخها نهائيا عن انتمائها العربي الإسلامي. ومنه لا سبيل للتغيير في ظل ما تمارسه فرنسا من أفعال عدائية ضد الدين الإسلامي، الذي يعد أساس الإصلاح حسب (العربي التبسي) إلى جانب اللغة العربية.

3.2.2 أسباب تخلف الأمة الجزائرية وخطاب الأمل: يقول (العربي التبسي) في أسباب تخلف الأمة الجزائرية:

"إذا كان الإصلاح الإسلامي ونفع الأمة الجزائرية والنهوض بالناشئة الوطنية أمورا محتمة على الفئات المثقفة تثقيفا صحيحا، فإن وسائل الإصلاح وذرائع إفادة الشعب ومقومات النهوض بالناشئة أوجب عليهم، مادامت قاعدة: ما لم يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما دامت وسائل الحق حقا، وما دامت ذرائع العبادة عبادة، قواعد أصولية وقوانين اجتماعية، لا بد لنا من السير في مدارجها ما دمنا نريد أن تكون مساعينا مكللة

بالفوز، وجهودنا مصحوبة بالتوفيق، وسعينا مثمرا" (التبسي، 1959، صفحة 17). فقد أبقى (العربي التبسي) على الأمل في إمكانية تحقيق النهضة وانتشال الأمة الجزائرية من وضعها المزري، وجعلها تستعيد أمجادها ومكانتها الريادية، التي فقدتها بسبب الاستعمار الفرنسي، وهذه المهمة في تقديره ليست مستحيلة ما دام هناك رجال علم وإصلاح يمثلون عنصر قوة، فهم القادة والحراس المؤتمنون على شؤون الأمة، وتفعيلهم في مجال الإصلاح والتعليم أمرا محتما.

4.2.2 مبدأ التعاون وفكر الجماعة في خطابه الإصلاحي:

يقول في هذا الشأن: "وقد وجد فيما جد من دعائم المدينة أن كل مبدأ لا تخدمه الهيئات، ولا تستشعره الجماعات، هو مبدأ صائر إلى حيث صارت الشعوب البائدة، وأن توحيد قوى العاملين باسم واحد، ولغاية واحدة في هذه العصور من الضروريات لنجاح الأفكار، وحياة المشاريع.

وأن الفرد، وعلم الفرد، تفكير الفرد، وجهود الفرد هذه كلها –آلت في هذا العصر- كبقية من بقايا العصور الماضية التي انتقلت من وظيفة العمل بها إلى وظيفة الاعتبار بها، وهي داخلة في أخبار الأولين كآلتهم وماعونهم.. حيث انقطعت صلة الأمم بالاتكال على الفرد وجهوده، وحلت الجماعات محل الأفراد، وأصبح عمل الفرد في شؤون الجماعة في هذا العصر غير مرضي عنه، وبات التعاون في كل شيء رمزا عاما في العالم، وعلى قدر تشبع الأمة بعقلية التعاون في كل شيء، وبالأعمال الاجتماعية تعلو الأمة، ويمتد رواق سعادتها... (التبسي، 1959، صفحة 17)؛ إذ يجعل (العربي التبسي) من الاجتماع البشري ضرورة لاستمرار حياة الأفراد، وفكرته تعد نظرية حقيقية، تعبر عن فطرة إنسانية وحاجة الإنسان إلى الإنسان المادية والمعنوية في أداء أموره الحياتية، ليس في وسعه أن يستقل بأدائها لوحده. فالتعاون رمز النجاح والرقي لدى الأمم المتطورة،

والإيمان به من خلال الحث على التظافر بين أفراد المجتمع يعلي من شأن الأمة ويجعلها ترتقي وتتحضر.

ويقول أيضا في الشأن نفسه: "... أفلا يتعظ بأن إهمالهم وتسليمهم للجهل، والفقر ومساوئ الأخلاق، وفساد عقلهم وتربيتهم وتعودهم للموت المعنوي والانحلال الخلقي، قضى على معنويات الفرد ومسخ إنسانيته، وقتل كرامته وأخرج منه كل معاني المروءات وخواص الشرف، وأصبحنا في وطننا الجزائري لا يرى أحدنا أن سعادته بأمته، وأن غناه بأمته، وأن قيمته تابعة لقيمة أمته، وأن أمة فسدت أفرادها، وهانت آحادها، واعتدى الزمان عليها، لا يمكن ولا يتصور أن يبقى لا الإسلام ولا الإيمان ولا آداب المسلمين، ولا عبادات المؤمنين، ولا فضائل المتقين في شعب كهذا.

ذلك لأن دين الإسلام بني على اجتماعات شعبية تتلاقى عندها أفراد الأمة وتتجمع آحادها، وينضوي تحت لوائها مريضها وعربيها وفقيرها وجاهلها ومظلومها، فيجد العون على الكربة والنجاة من الكريهة.

إذ زماننا معشر الجزائريين قد دارت دورته وضرب ضربته ونقل فردنا وأسرتنا إلى حالة أقوام آخرين، كانوا قبل اليوم بأربعة عشر قوما يعيشون عيشة الفرد الشقي بفرديته لا يسأل عن غيره، ولا يسأل غيره عنه، يلد ويعيش لنفسه، خرج من بطن أمه ذاهبا لقبره، غير معرج على دنيا الناس ولا على آخرتهم.

هذه وضعية أفراد الشعب الجزائري، ولهذه الفردية توجد ملايين الجهلة، وملايين من الجياع، وملايين من أصحاب العاهات في هذا العصر، الذي ذابت فيه الأفراد والجماعات في الشعوب، وأممت المصالح، كالتعليم والصحة وضمان العيش وما إليها... تعيش الملايين من عرب الجزائر في كل ناحية من نواحي حياتها واجتماعياتها على الفردية الهزيلة المهنية.

على متى يا ترى ترضى الجزائر العربية المسلمة لنفسها هذه الحالة؟ وما هي العاقبة والنهاية لهذا الشعب؟ إن دام على هذا السير، ورضي بهذه الوضعية، واستمر هذا المرعى الوبيل، واستطاب هذا المنزل الموبوء..." (التبسي، 1959، صفحة 01).

فقوة الأمة الجزائرية تكمن في اجتماعها، وتوحدها على تجديد أفكارها والمضي قدما نحو الإصلاح الاجتماعي والديني والثقافي، بمحاربة الجهل والفقر وتعزيز الأخلاق والقيم الفاضلة، فالتغيير لن يحصل ما لم تتعرف الأمة الجزائرية على مكامن ضعفها وانحطاطها، وما لم تلتفت أيضا إلى قدراتها وإمكاناتها، وتضعها في موضع التفكير الاستراتيجي في مجال التربية والتعليم؛ والإصلاح والإرشاد من أجل مستقبل أفضل، ينهض على استقراء الماضي ويستوعب الأحداث الحاضرة ويتوغل في العمق التاريخي، ويستفيد من التجارب الناجحة للأمم الأخرى، ويعلم أسباب التحضر، وأسباب الضعف والسقوط، ويحدد القوانين الاجتماعية الفاعلة في الحياة، والإحاطة بالمشكلات المطروحة، وتحليلها ومحاولة إيجاد حل لها، كونها تمثل حاضر الجزائريين بكل معاناته، ومحاولةِ وضع هذا الحاضر في موقعه المناسب من مسيرة هذا الشعب، في تواصله الثقافي والحضاري، وارتباطه بالدين الإسلامي.

فالتخلف الحضاري الذي يعيشه الشعب الجزائري يبعث على الحيرة، ويجعل من خطاب العربي التبسي قلقا، يجد القارئ نفسه متفاعلا مع تفاصيله الظاهرة والمضمرة، كونه يلامس الواقع الحالي في بعض جوانبه، إذ يمكن الاستفادة من تداعيات هذا الخطاب واحتمالاته الممكنة؛ لأخذها بعين الاعتبار في دعوات الإصلاح والتجديد والتغيير المستقبلية، من أجل التخلص من حالة الانطفاء الثقافي، الذي يبعثر قدرة الأمة الجزائرية، ويعطل إرادتها.

خاتمة:

نخلص في آخر مقالنا هذا إلى الوقوف على الجهود الإصلاحية، والإسهامات التربوية والتعليمية للشيخ (العربي التبسي)، والتي عكست فكره المتحرر والتنويري من خلال خطابه، الداعي إلى التطلع لحياة أفضل للشعب الجزائري، الذي يعيش تحت وطأة المستعمر، فما ينبغي أن يحدث هو استرجاع الحرية والكرامة المسلوبتين لديه، والعمل على إصلاح ما أفسده هذا المستعمر، بتبني الهدف التربوي، والرجوع بالشعب الجزائري إلى عقائد الإسلام، ونظمه المبنية على التآلف والتعاون بين الأفراد والجماعات.

فقد تشكل خطابه داخل مجتمع يعاني من الفقر والجهل، ومن أشكال الاستلاب التي كان يمارسها المستعمر الفرنسي، من طمس الهوية ومحو الدين وقتل الذات...إلخ، لذا كان هم الرجل تحرير وتنوير العقول وإصلاح الأمة، ليتحقق تحرير الأرض بعدئذ، وقد أدرك (العربي التبسي) بوعيه التنويري، الإصلاحي أنه لا يمكن لهذه الأمة أن تنهض وتتطور ما لم تلتفت إلى ذاتها وتجسد كينونتها في هذا العالم وتحقق حريتها.

والإصلاح الاجتماعي والتربوي مرتبط ارتباطا وثيقا بخيط الفكرة الدينية في خطاب (العربي التبسي) الإصلاحي، ومرد ذلك أن مرجعه هو الأخلاق والقيم الفاضلة، المستمدة من الدين الإسلامي، وشرائع الله ومنهجه المتكامل في بناء الكون. لذا جاءت نظرته للإنسان في إطار هذا المنهج الذي يفسر علة وجود الإنسان ودوره في الحياه، ومصيره، وموقعة من البناء والتشييد والإصلاح.

ويمكن القول في الأخير إن خطاب الشيخ (العربي التبسي) الإصلاحي والتعليمي يمثل دفعا إيمانيا، وشحنة إيجابية تبعث روحا جديدة للإصلاح والنهوض بمصالح الأمة وشؤونها التعليمية والتربوية حاضرا ومستقبلا.

قائمة المراجع:

أحمد الرفاعي، شرفي. (1981). *الشيخ العربي التبسي مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر جمع وتعليق. (ط01)*. دار البعث للطباعة والنشر.

دبوز، محمد علي. (1981). *أعلام الإصلاح في الجزائر*، دار البعث للطباعة والنشر.

بديدة، لزهر. (2013). *رجال من ذاكرة الجزائر*. (ط05). منشورات الرياحين.

أحمد الرفاعي، شرفي. (2011). *مقالات وآراء جمعية العلماء المسلمين، الشيخ العربي التبسي*. دار الهدى.

الزبيري، محمد العربي. (2014). *تاريخ الجزائر*. دار الحكمة.

التبسي، العربي. (1949). *ما يجب أن يكون عليه المعهد في السنة الآتية*. جريدة البصائر. (90). ص02.

ابن نعمان، أحمد. (1982). *الجهاد وثورة الاستقلال*. دار البعث للطباعة.

وعلي، محمد الطاهر. (2009). *التعليم التبشيري في الجزائر –دراسة تاريخية تحليلية-* . منشورات دحلب.

ابن نبي، مالك. (1984). *مذكرات شاهد للقرن*. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

الميلي، مبارك. (1982هـ). *مقدمة كتاب رسالة الشرك ومظاهره*. (ط03). دار البعث.

التبسي، العربي. (1932). *إعداد الوسائل للنهوض بالمجتمع*. مجلة الشهاب. 07 (05). ص17.

التبسي، العربي. (1951). *حول قضية فصل الدين عن الحكومة نريد نيات طيبة لا خطبا بليغة*. جريدة البصائر. (177). ص 2-7.

مريوش، أحمد. (2007) *الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية الجزائر*. دار هومة.

التبسي، العربي. (1981). *مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر*، (ط01). دار البعث للطباعة والنشر.

سعدالله ، أبو القاسم. (1998). *تاريخ الجزائر الثقافي*. (ط01). دار الغرب الإسلامي.

سعيدوني، ناصر الدين. (2009). *الجزائر منطلقات وآفاق: مقاربات للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية*. (ط02). دار الغرب الإسلامي.

التبسي، العربي. (1953). *مواعيظ رمضان (4)*. جريدة البصائر. 2 (231). ص01.

التبسي، العربي. (1959). *مواعيظ رمضان (6)*. جريدة البصائر. 2 (234). ص01.